الكتاب الرابع

إسلام بلا مذاهب

أ.د. مصطفى الشكعة

تحليل وعرض أ. محمود سعيد

ومراجعة أ.د. محمد الجليند

نبذة مختصرة عن المؤلف:

يُعدُّ الدكتور مصطفى الشكعة أحد المفكرين البارزين، فهو عضو مجمع البحوث الإسلامية والعميد الأسبق لكلية الآداب جامعة عين شمس، ورئيس لجنة التعريف بالإسلام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعضو لجنة الحوار الإسلامي المسيحي بالأزهر الشريف، وواحد من أهم المدافعين عن الإسلام ضد مظاهر الغلوِّ والتفريط والهجمات الشرسة، التي يتعرض لها هذا الدين، سوف يُفصح لنا كتابه الذي نعرض له عن شيء من جهده المذكور.

وقد وُلد مصطفى محمد الشكعة في أغسطس ١٩١٧م، في ريف محافظة الغربية، بقرية محلة مرحوم المجاورة لمدينة طنطا، فنشأ وتعلَّم في مدارسها الابتدائية وجانب من الدراسة الثانوية، ولَّما تُوفي والده لم يكن هناك حاجةٌ للبقاء هناك، فانتقل للإقامة مع أخيه الأكبر الذي كان يعمل موظفًا في القاهرة، وكان ذلك في أواخر الثلاثينيات من القرن، وكان هذا الأخ عضوًا في جمعية الشبان المسلمين، بيد أنه سرعان ما انتقل إلى جماعة الإخوان المسلمين، ومن ثم انتقل معه الشاب مصطفى إلى الإخوان أيضًا، وتخرَّج في كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٤٤م، وعمل مدرسًا بالتعليم الثانوي في الفترة (١٩٤٤ - ١٩٤٩م)، وفي تلك الأثناء كان يعد رسالته للماجستير في الآداب من جامعة القاهرة، عام ١٩٥١، ثم عمل رئيسًا لوحدة اجتماعية ثم خبيرًا بالتخطيط الاجتماعي (١٩٤٩ـ ١٩٥٦م)، وحصل على الدكتوراة من كلية

الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٥٤م. وعُيِّن مدرسًا بكلية الآداب، جامعة عين شمس، عام ١٩٥٦م. وانتدب للعمل مستشارًا ثقافيًا بواشنطن (١٩٦٠ - ١٩٦٥م). وأعير أستاذًا بقسم اللغة العربية بجامعة بيروت العربية (١٩٧٠ - ١٩٧٤م). ثم رئيس قسم اللغة العربية (١٩٦٤ - ١٩٧٦). - وكان عميدًا لكلية الآداب، جامعة عين شمس، عام ١٩٧٦، ثم عمل أستاذًا للدراسات العليا بجامعة أم درمان (١٩٧٩ - ١٩٨١م) ثم عميدًا لكلية بجامعة الإمارات العربية المتحدة (١٩٨٢ - ١٩٨٣م).

وقد أثرى المكتبة العربية بعدد كبير من المؤلفات التي جمعت بين الإنتاج الأدبي والفكر الإسلامي، منها:

- فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين.
- بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية.
- أبو الطيب المتنبي في مصر والعراق.
- معالم الحضارة الإسلامية.
- الإمام الشافعي.
- الإمام أحمد بن حنبل.
- مقالات في الدراسات الإسلامية (بالإنجليزية).
- التربية والتعليم في العالم العربي (بالإنجليزية).
- إسلام بلا مذاهب وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

سبب تأليف الكتاب، وهدفه:

استرعى انتباه د.الشكعة حال المسلمين بين يومهم وأمسهم، فحالهم اليوم يرثى له، فإنك مهما طَوَّفتَ فلن تجد أرضًا مستعمرة إلا أرض المسلمين، ومهما شرقت أو

غربت فلن تجد مستباحًا غير دمائهم؛ لأنها دماء رخيصة بلا ثمن، أما المسلمون في أمسهم فكانت لهم دولة وعزة وكرامة تكفل لغير المسلمين أن يعيشوا في كنفهم عيش الكرماء، وإذا نبت نبوة الخروج كانت الحرب سابقة إليهم في ديارهم ليلقنوهم درسًا في أدب الحوار، ووجد المؤلِّف أن السبب في تبدل المسلمين من حال إلى حال أو من القوة إلى الضعف ومن الانتصار إلى الانكسار هو تفرقهم شيعًا وأحزابًا، فهناك خصومة بين السني والشيعي، بل كل فريق متفرق في ذاته فالشيعة متفرقون إلى: إمامي، وزيدي، وإسماعيلي، ودرزي، وعلوي، والسنة منهم: أشعري ماتريدي وهابي...ومن ثم جاء الكتاب ليعالج مسألة فُرْقة المسلمين-التي هي واقع الآن- ويكشف د. الشكعة عن هدفه من تأليفه قائلا: «وكان الهدف من إصداره-ولا يزال- توحيد الكلمة وجمع الشمل ورأب الصدع بين جمهور المسلمين على اختلاف مذاهبهم» ، فالكتاب دعوة «إلى وحدة الكلمة وتأليف القلوب، ولَمِّ الشتات وتوحيد الصفوف»، وأشار إلى تلك الغاية أيضا في مقدمة الطبعة الثالثة حيث قال عن الهدف «هو توحيد الصف، وجمع الكلمة بعدما صنع بنا الخلاف ما صنع، وجنى التفرق علينا ما جنى»، ومن أهدافه أيضا تعريف الشباب وتثقيفهم في كل أرض وصقع ومن كل مذهب بثقافة مذهبية تكون سبيلًا إلى السماحة ودرعًا ضد التعصب والعصبية «حتى لا يقعوا في شبهات غير بني الإسلام فضلًا عن تنقية العقيدة من الأوشاب التي علقت به على مر الزمان تطهيرًا لها من البدع والمستحدثات، وتخليصًا من الزيف وتخطيًا للجمود، في إطار من نبل الغاية وسلامة القصد».

ولعل في تقديم الشيخ شلتوت شيخ الأزهر آنذاك لذلك الكتاب يفصح لنا عن سبب حقيقي آخر وراء تأليف هذا الكتاب لم ينص عليه المؤلف صراحة كما أعلن في سابقه، وهو أن يكون الكتاب خطوة نحو التقريب بين السنة والشيعة، المنبثقة عن علماء الأزهر الشريف وعلى رأسهم شيخه الشيخ شلتوت، ولا يخفى أن

المذاهب التي عرض لها هي المؤثرة إلى الآن على قوة الأمة الإسلامية، ومن هنا ركَّز الدكتور الشكعة على الشيعة بالذات باعتبار أنهم جزء مهم وكبير من نسيج الأمة الإسلامية، وحينما يحدث تقريب بين السنة والشيعة فسيكون هنالك حقا **إسلام بلا مذاهب** أي بلا فَرْقٍ بين سنة أو شيعة، أو فِرَقٍ داخل الفرقة الواحدة، والحق أن الشيخ شلتوت كان واحدًا من كبار العلماء الذين لقيت دعوة التقريب على أيديهم تقدمًا كبيرًا، ومن ثَمَّ قدم للكتاب بمقدمة كشف فيها عن غاية الكتاب في التقريب ووحدة الصف ووصفها بأنها غاية نبيلة وكريمة، ووصف كتابه بأنه «كتاب علم وتاريخ وأدب لا يرى العالم فيه انحرافًا عن الجادة كما لا يرى فيه المؤرخ تحاملًا على فريق لمصلحة فريق بل هو سجل للأحداث من غير تحيز ولا تعصب»، ومما يدلنا على نقاء ساحة الدكتور الشكعة ونزاهته العلمية أنه تردد في الإضافة إلى الكتاب بعض المسائل في طبعاته التالية لا سيما بعد أن كتب الشيخ شلتوت تلك المقدمة الطيبة لطبعة الكتاب الأولى وانتقل -بعدها- إلى رحمة الله فكيف يضيف للكتاب؟ وهل إذا أضاف كان سيرضي الشيخ شلتوت بتلك الإضافة -وهذا يدلنا على رغبة الدكتور الشكعة في التقريب- وهذا ما استقر عليه واطمأن إليه، ومن ثم جاءت الطبعات التالية مزيدة ومنقحة وحسبنا أننا سنعرض للكتاب في طبعته الأخيرة.

الكتاب وبنيته الإجمالية:

وقد قَسَّم الكتاب إلى ستة أقسام تناول في الأول منها:

التعريف بماهية الإسلام في صورته الأولى التي نزلت وردَّ فيه على ثلاث شبهات يُتهم بها الإسلام، وهي: الإسلام والرق، الإسلام والسيف، والإسلام والتعدد ومكانة المرأة، وفي الثاني عرض للفرق غير الإسلامية المنقسمة، متناولًا لنشأة كل من: الخوارج والشيعة والإباضية، والإمامية، وفي الثالث الفرق الغالية، (**غلاة الشيعة الإسماعيلية والدروز العلويين النصيرية**) وخص القسم الرابع

للحديث عن المعتزلة وحدها، والخامس لأهل السنة والصوفية والسادس عن تقييم عام يوضح فيه موقفه من التقريب بين المذاهب الإسلامية درءًا للاقتتال والخلاف بين المذاهب المعاصرة.

بنية الكتاب التفصيلية:

ففي القسم الأول أكد أن الإسلام دين الفطرة الإنسانية؛ لأنه دستور العقل ويستنير به، وشريعة تنظم أحوال المجتمع، والعقل في الإسلام يؤمن بوجود إله واحد لا شريك له، خلق الكون، والإنسان يؤمن أيضا بوجوده- كما استدل ديكارت على وجود الله عن طريق وجوده- في عبارته المشهورة: أنا أفكر إذن أنا موجود، فإذا كان الإنسان علي ما فيه من عيوب يسعى إلى الكمال ولا يصل إليه في غالب الأحوال فكيف نزعم أنه أوجد نفسه؟ وإذا كان عاجزًا عن إكمال نفسه بإيجاد ما ينشده، فعجزه عن إيجاد غيره أشد وضوحًا، إذن لابد أن تكون هناك قوة أعلى غير محدودة يخضع لها الكون، وليس كما يزعم الملحدون بأن الكون وجد بطريق المصادفة، والحق أن تفكير الإنسان في ذاته وصولًا إلى خالقه يعد فهمًا قرآنيا أشار إليه القرآن في العديد من الآيات منها: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١].

والإسلام – في عقيدته التي دعا إليها وشريعته التي أمر بالعمل بها – يتسم بالسماحة مع غيره من الأديان السابقة، فأكد على ما كان فيها من خير، مستكملًا إياها بما يحتاجه الزمن من تطور الفكرة الأزلية، ولم يُكْرِه أحدًا على اعتناق عقيدته ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة:٢٥٦] ، واتسمت شريعته بأنها تربط الناس بعضهم ببعض من خلال أنظمة محددة مثل: نظام الأسرة والمواريث وكذلك نظام المحارم في الزواج التي جمعت في آية سورة النساء نهي تدل على أن ترتيبها لا يأتي من بشر.

واتسم الإسلام بالمرونة لأنه أعلى من قيمة العقل، ومن ثم كان صالحًا لكل زمان ومكان ويدعو إلى التسلح بالعلم بحيث جعله فريضة على كل مسلم

ومسلمة، ولم تكن هنالك تفرقة بين علم شرعي وغير شرعي بل العلم بمفهومه الواسع العام من فلسفة وطب وهندسة وكيمياء وأحياء...ومن ثم قد كرم الله العلماء بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] ، والحضارة الإسلامية نفسها هي التي حفظت تراث اليونان الفلسفي وحكمة الهند وانتفع المسلمون بكل هذا بعد أن ترجموه والمسلمون الأوائل كانوا يقدمون العلماء وينزلونهم منازلهم حتى لو كانوا على ملة تخالف دينهم ولا أدل على ذلك من قرب نوبخت وولده سهل الفارسيين من قلب المنصور العباسي كما كان بختيشوع الفيلسوف النصراني كذلك.

ولما كان الإسلام لا يساوي بين الناس في الأرزاق فقد أقر لهم نظامًا يضمن للفقير أن يأخذ حقه من مال الغني في صورة زكاة أو ضريبة أو جزية ترد على الفقراء المعدمين من المسلمين وغيرهم، بل دعا إلى الإنفاق على الفقراء من ذوي القربي والغرباء ولم تكن مؤسسة الزكاة هي التي تحفظ على المجتمع الإسلامي ترابطه بل كانت كذلك قاعدة الشورى التي اتخذها الحكام لإشراك الرعية في الحكم عن طريق إبداء المشورة، وتجلى ذلك في خطبة أبي بكر الشهيرة، وكذلك في خطب سائر الخلفاء الراشدين من بعده إلى أن خرج معاوية على نظام الشورى وجعل الحكم وراثيا في أبنائه، وتلك القاعدة مبنية على قاعدة أخرى، وهي قاعدة المساواة إذ لا فرق باللغات ولا بالألوان أو الأعراق أو الأجناس وإنما يسوي الإسلام بينهم كأنهم أسنان المشط يؤكد على قاعدة المساواة أنه لا شفاعة لمجرم على حساب آخر إذ لم يقبل الرسول شفاعة حِبِّه أسامة وعنفه قائلًا: «**أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة**»، وتلك المساواة لن نجدها في تلك الدول الديمقراطية الكبرى التي قامت على دعوى عنصرية ضد السود وارتكبوا في حقهم أشنع الجرائم كما في إنجلترا والولايات المتحدة وأستراليا في مقابل إعلاء إنسانية اللون الأبيض، فأين ذلك من عدالة الإسلام التي أعلت من شأن بلال الأسود الحبشي فكان خيرًا من كثير من

سادة العرب لحسن إسلامه، فالإسلام جاء وسطًا بين العنف الذي دعت إليه اليهودية وبين الرحمة التي أرستها المسيحية دون أن يطغى جانب على جانب، فالقوة في موضعها والرحمة في موضعها إذ كلاهما من صفات الله لذلك يمكن أن نصف الإسلام بأنه القوة الرحيمة، ومن ثم صعب على من تلبس به دينا أن يتلبس بغيره، وآية ذلك عدم تحول مسلمي الجزائر إلى المسيحية بالرغم من الاستعمار والتبشير فيهم أكثر من ١٣٠ سنة.

الإسلام والرق: يتهم الإسلام بالرق من دول تمتهن الإنسان وتسترق الشعوب جميعًا بالاستعمار وغيره وما يزال الرق معترفًا به في الدول التي حرمته على الورق بل «إن الأوربيين والأمريكيين كانوا يهاجمون شواطئ أفريقيا جلبًا للعبيد والاتجار بهم في أسواق النخاسة، والإسلام هو الدين الوحيد الذي شرع العتق، إذ إن اليهودية وسائر الأديان السماوية والوضعية دعت إلى الرق، وكذلك الحال في الحضارات اليونانية على ما أنتجته من فكر وفلسفة راقية، وكذلك الفلسفة الهندية أباحته تحت اسم آخر تطلق عليهم اسم المنبوذين، فلماذا إذا يشنعون على الإسلام رغم وجوده في كل الأديان السماوية السابقة وكذلك في الفلسفات اليونانية والهندية؟ أجل جاء الإسلام إلى جزيرة العرب فوجد أنواعًا من الرق منها أسير الحرب، ورقيق الخطف، وبعض مرتكبي الجرائم الخطيرة، والمدين العاجز عن سداد للدائن، وأبناء الآباء الفقراء الذين باعوا أبناءهم، والأشخاص الذين يتنازلون عن حريتهم أو جزء منها مقابل إطعام أو حماية أو أبناء الإماء، والإسلام لم يبح الرق إلا في أسير الحرب الشرعية التي تكون مع غير المسلمين، وهذَّب بقية أنواع الرق حيث حرر أبناء الإماء من سادتهن ما دامت الأمة أصبحت أمًا، وهذا التدرج في تحرير الرقيق كان مصحوبًا بحقوق لهم يطلب فيها السيد أن يقول للعبد فتاي فتاتي، وأن يحسن معاملتهم، وأن يؤاكلهم، ولهم حق في تكوين أسرة، بل إننا

بحثنا في كتاب الله فلم نجد أية آية تدعو إلى استرقاق الناس واستعبادهم، بل جعل الله تحرير العبيد وفك الرقاب كفارة عن كثير من الذنوب كالحنث في اليمين أو القتل الخطأ، ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء:٩٢]، والذي لا يجد رقبة عليه أن يشتري رقبة ويعتقها بل دعا الإسلام العبد إلى تحرير نفسه من سيده مقابل مبلغ من المال، وجعل كل ما يقوله السيد هازلًا أو جادًا من وعد في صالح تحرير العبد، وإذا أوصى السيد بفك رقبة معينة بعد موته فإن مات فقد وهب حريته.

وقد رد على الذين أخذوا على عاتقهم تجريح الدين في موضوع آخر وهو موضوع **التعدد أو الزواج** بأكثر من واحدة، وأكد د. الشكعة في حجة واضحة أن التعدد لم يكن موجودًا في الإسلام فحسب بل كان موجودًا في الشرائع السماوية السابقة، إذ كان معروفًا في الديانة الإسرائيلية عند سليمان وداود، وكان لكل منهما زوجات يربو عددهن على المائة، وكذلك بالنسبة للمسيحية حيث إن الأناجيل لم تحرم تعدد الزوجات، فقد أباحه مارتن لوثر زعيم البروتستانت لهذا السبب، وظل معترفًا به حتى نهاية القرن السابع عشر ولم يسمح بزوجة واحدة إلا لمن لم يطق حياة الرهبنة، ولكن الجديد في الإسلام أن التعدد يقتضي عددًا لا يزيد عن أربع ويشترط في الجمع بينهن العدل وإلا فليس من العدل أن يترك الزوج الصحيح زوجته المريضة ليتزوج بأخرى؟ أو يترك العاقر في الطريق العام ليتزوج واحدة منجبة؟ فهذه الظروف وغيرها هي التي تبيح التعدد وهذا أيضا يقره منطق العقل السليم ففي ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية خرجت النساء في مظاهرات مطالبات بالتعدد لفقد الرجال في الحروب ووجود الأطفال اللقطاء دونما رعاية.

يؤمن المؤلف بأن المرأة هي كل المجتمع؛ لأنها - كأم وأخت وزوجة وعمة وخالة وبنت- هي التي تحتضن الذكر والأنثى في فترة طفولتهم فإن أحسنت رعايتها صلحت الأمة، ومن ثم حث القرآن الكريم والسنة النبوية في كثير من

الآيات والأحاديث على تلك المكانة التي يجب أن تكون جلية لكل ابن أنثى، يقول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤]، ويقول الرسول ﷺ: «**ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم**»، وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي تعلى من شأن المرأة.

وعرض المؤلف لحال المرأة قبل الإسلام عند أصحاب الحضارات القديمة، فالمرأة عند اليونانيين القدماء كانت مسلوبة الحرية معدومة المكانة، وكان أرسطو يعيب على أهل إسبرطة أنهم يتساهلون مع النساء ويمنحونهن بعض الحقوق التي تفوق أقدارهن، أما عند الأثينيين فقد كانت المرأة تباع وتشترى بيع السائمة والعقار، وكان من حق الإنسان أن يمتلك أي عدد من النساء دونما قيد أو شرط، وأما المرأة عند الرومان فقد كان تعدد الزوجات تقليدًا من تقاليد الشرف، وكان لهم شعار وهو أن قيدها لا ينزع ونيرها لا يخلع، وبذلك لم تسترد حريتها إلا بتحرر العبيد.

وحال المرأة عند الهنود كان أفظع بحيث إذا مات زوجها تحرق معه وهي حية إذ لا يحق لها الحياة من بعده، وعند الفرس كانت سجينة بيت زوجها أو مالكها ولا تخرج إلا بالموت أو البيع، وأبيح الزواج بالأمهات والأخوات والعمات، وزاد من امتهانها أنها كانت تنفى خارج المدينة في فترة الطمث خشية النجاسة.

أما المرأة في الديانات السماوية قبل الإسلام لم تنل المرأة اليهودية حقها من الميراث مع إخوتها من الذكور ولا ترث إلا إذا كانت وحيدة وإذا ورثت لا تتزوج خارج رهطها حتى لا ينتقل الإرث، وكانوا يجمعون بين الزوجات بغير تحديد، أما في المسيحية فقد باءت المرأة بلعنة الخطيئة فكان الزهد فيها والابتعاد عنها مأثورة حسنة لمن لا تغلبه الضرورة، وتساءلوا في مجمع ماكون هل المرأة جثمان بحت أم هي جسد ذو روح يناط به الخلاص والهلاك، وغلب على آرائهم أنها خلو من الروح

الناجية وليس هناك استثناء إلا سيدتنا مريم أم المسيح عليها السلام.

أما المجتمع العربي الجاهلي فقد كان لا يقل في امتهانه للمرأة عما سبق إذ كان يأخذ على عاتقه استئصال المرأة، وهي طفلة بوأدها وليدة، وعرض القرآن لتلك الصورة في قوله – تعالى- : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩] وكانت تنقل المرأة ضمن تركة الأب لابنه، إلى أن جاء الإسلام فكرم المرأة ووضع لها حقوقًا، في الحياة وفي الميراث ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ ﴾ [النساء:٧] ومنحها صداقًا لها لا لأهلها، وسوى تسوية مطلقة بين دم الرجل ودم المرأة في آيات القصاص، وقد كان قبل الإسلام القصاص لقاتل الرجل فحسب. وجعل لها ذمة مالية خاصة لها أن تتصرف بها كيفما شاءت، وقرن الإسلام الرجل بالمرأة في كل مجالات الخير، وبذلك تتحقق المساواة النوعية بين الرجل والمرأة، ومن أعظم الحقوق الشرعية التي كسبتها المرأة من القرآن الكريم- حسب تعبير العقاد- أنه رفع عنها الخطيئة الأبدية ووصمة الجسد المرذول، وبتلك المكانة في الإسلام كانت المرأة تستفتى كأمهات المؤمنين، وتخطب في المعارك كالزرقاء بنت عدي يوم صفين إذ شهد لها خصمها معاوية، بل إن الإسلام حول المرأة من بكَّاءة ندَّابة إلى راضية صابرة تستعصي دموعها، فالخنساء في جاهليتها لم تكف عن رثاء أخيها صخرًا، ولكنها في الإسلام قدمت أبناءها الأربعة شهداء في حمد وصبر بالغين، سائلة المولى – تعالى- أن يجمعهم بها في مستقر رحمته.

ثم عرض د. الشكعة لفرية أخرى اتهم فيها الإسلام بأنه **انتشر بالسيف**، فهل صدق المستشرقون في دعواهم؟ ويؤيد المدعون ذلك بربط انتشار الإسلام بالفتوحات الإسلامية، والحق أن المسلمين لم يشهروا السيف لأول مرة إلا دفاعًا

عن الدعوة كما حدث في غزوة بدر وكذلك في سائر الغزوات كانت إما دفاعية أو وقائية أو كلاهما سواء، أو لإخضاع الظالمين من الحكام دون أن يرغموا أحدًا على الدخول في دينهم، ومن ثم فلم يقتلوا شيخًا ولا امرأة ولا طفلًا ولا عاجزًا، بل أمَّن أهل الأديان على أديانهم وفقًا لمبدأ العدل الذي فرضه الله على عباده، ولا نعجب إذا كان يستنجد أهل البلدان المفتوحة بالمسلمين من الظلم الواقع عليهم كما كان الحال بالنسبة لقبط مصر، وشهد بسماحة المسلمين «يشوع ياف» الثالث في رسالة بعث بها إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فارس يصف فيها سلوك المسلمين إزاء المسيحيين في الحفاظ على عقيدتهم وتكريم قسيسيهم ورهبانهم واستعمالهم في مناصب مرموقة (الوزراء والحجاب) في الدولة كما كان الحال - بعد ذلك - في الدولة الفاطمية في مصر أو الخلافة الإسلامية في الأندلس أو في الدولة العباسية في بغداد، وموقف صلاح الدين العملي منهم في الحروب الصليبية يؤكد ذلك حيث استبقاهم في مناصبهم وأسبغ عليهم من تسامحه، ومن هنا لم ينشر الإسلام بالسيف، بل إن الفاتحين كانوا هم الذين يتحولون إلى الإسلام طوعًا كما كان الشأن مع السلاجقة الوثنيين، والمغول التتر الذين قتلوا خليفة المسلمين ثم ما لبثوا أن انضووا تحت لوائه بل إن تعاليم الإسلام اجتذبت الصليبيين الذين جاءوا لمحاربة المسلمين نظرًا لما وجدوه من معاملة كريمة في الأسر، أما الحوادث الفردية البسيطة التي يستند عليها أصحاب النوايا السيئة بالإسلام وأهله فلا يصح أن نعممها على موقف الإسلام كله؛ لأن أكثر منها كان موجودًا في المسيحية وغيرها، وكان يعاقب عليها حكام المسلمين بأنفسهم لتكون ردعًا وتنفيذًا لقوله – تعالى-: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فالإسلام انتشر بقوة العقيدة وعمق الإيمان حتى في الأوقات التي انكسر فيها سيف المسلمين فإنه ظل ينتشر شرقًا وغربًا ومازال إلى يوم الناس هذا ينتشردونما سيف غير سيف السماحة والإيمان والإحسان الذي يقنع كل من تعرض

عليه رسالة السلام والإسلام.

انقسام المسلمين إلى فرق ومذاهب:

لم يكن هنالك اختلاف بين المسلمين في حياة الرسول، وإنما دب الخلاف في الرأي بعد وفاته ﷺ، وكان سبب الخلاف حول من يخلف رسول الله في القيام بأمر الإسلام والمسلمين، وانحسم الخلاف لصالح المهاجرين فبويع أبو بكر خليفة ثم أشار من بعده بعمر إلى أن أتى عثمان وحدثت الفتنة الكبرى بقتله فانقسم المسلمون فريقين كبيرين: فريق يتشيع لعلى ﷺ، وفريق يتابع معاوية في طلبه بثأر عثمان وحدثت آنذاك معارك قُتل فيها المسلمون إلى أن جاءت فكرة التحكيم، فرفض تلك الفكرة جماعة من أشياع سيدنا على وخرجوا عليه مكونين حزبا ثالثا، وهم الخوارج، في حين بقي المتابعون أو المشايعون له حاملين اسم الشيعة، وبذلك يظهر أن انقسام المسلمين كان سياسيًا، وليس في صلب العقيدة انقسمت تلك الفرق هي الأخرى إلى أقسام عديدة عرض لها المؤلف في إطار محاولة الإجابة عن هذا السؤال هل من سبيل إلى تجميع الكلمة ولم الشمل ورأب الصدع؟.

الخوارج: وهم الذين خرجوا على سيدنا على بعد رفض التحكيم قائلين لا حكم إلا لله؛ لذلك عرفوا بالمحكمة، واستقروا بحروراء غير بعيدٍعن الكوفة، وبايعوا عبد الله بن وهب الراسبي، وعرفوا بالحرورية، وسموا أيضا بالشراة أي الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، فطعنوا على عليّ في الحكم وحكموا على غيرهم بالكفر وبلغوا من التطرف حدًا قتل به ابن ملجم سيدنا على في المسجد، وانقسموا مع نشاطهم في الدولة الإسلامية إلى ثمانى فرق: كان أكثرها إراقة للدماء الأزارقة الذين ينسبون إلى نافع بن الأزرق، بعكس النجدات أتباع نجدة بن عامر، وكل فرقة من الخوارج انقسمت إلى فرق أخرى، وكان لفرق الخوارج شعراء يعبرون عن عميق إيمانهم مثل قطري بن الفجاءة آخر زعماء الأزارقة، واتسم

الخوارج بالعنف والشدة وعدم التسامح ورغم ذلك فقد قال الإمام علي في آخر أيامه: «لا تقاتلوا الخوارج فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه» يقصد بذلك بني أمية، وهذا ما أيده عمر بن عبد العزيز، ويرون أن الحاكم يختار اختيارًا حرًا من بين المسلمين ولو لم يكن قرشيًا ما أجمع المسلمون عليه، واعتبروا العمل جزءًا من الإيمان، ومن ثم الذي يرتكب الكبيرة يعد كافرًا مخلدًا في النار، وكل من لا يرى رأيهم يعد كافرًا أيضا ويَحِلُّ دمه وماله ونساؤه، وعطل الأزارقة بعض الحدود كحد الرجم للزاني، أما **الإباضية** فهي من أشهر فرق الخوارج بإطلاق حيث إنهم ما زالوا يسكنون في عمان وزنجبار وشمال أفريقية ويرفضون النسبة إلى الخوارج، ويفضلون النسبة إلى أصحاب عبد الله بن إباض، وأحد علماء الإباضية المحدثين ألف كتابًا يدفع به عن صلة قومه بالخوارج«أصدق المناهج في تمييز الإباضية عن الخوارج»واتخذوا منه زعيمًا سياسيًا؛ لشجاعته وفصاحته التي بدت مع الخليفة الأموي في خطابه معه، فضلًا عن دفاعه عن المقدسات الإسلامية، وقد انتشر المذهب بين البربر في النصف الأول من القرن الثاني، ومنهم أول من دوَّن علم الحديث وهو جابر بن زيد ٩٣هـ، وانقسموا إلى الحفصية والحارثية واليزيدية.

وإذا كان ابن إباض زعيمًا سياسيًا فإن جابر بن زيد يعد المؤسس الحقيقي لمذهب الإباضية من الناحية الفقهية والشرعية بل إن الأول تعلم على يديه، وشهد له بالفضل والعلم، وروى عنه من العلماء أمثال قتادة ، وعمرو بن دينار، وكذلك مسلم بن أبي كريمة الذي يعد من أهم فقهاء الإباضية، وتخرَّج على يديه كثير من التلاميذ الذين ملأوا البلاد وشغلوا العباد.

وعرض المؤلف بعد ذلك لعقيدة الإباضية، ففي مسألة رؤية الله – تعالى- قد نفوا رؤية الله – تعالى- في الدنيا والآخرة تنزيهًا له – تعالى- مستندين إلى عدد من الآيات المحكمات مؤولين غيرها، أما في الصفات فيرون أن لله صفات واجبة

وأخرى مستحيلة ضدها، فإذا كانت صفات العلم والقدرة وجبت عليه فإن ضدها كالجهل والعجز تمتنع عليه. أما القدر فيؤمنون أنه من عند الله وللعبد الاختيار والاكتساب، ويتفقون مع المعتزلة بأن القرآن مخلوق، ولم يرتضوا في الخلافة بشرط القرشية وإنما شرطوا الكفاءة والعدل والكرم والتقوى.

ويرى المؤلف أن الإباضية من أقرب المذاهب إلى أهل السنة وأن وجوه الاتفاق أكثر من وجوه الاختلاف.

الشيعة: هناك من يرون في تفسير نشأتها أنها عقيدة دينية وآخرون يرون أن التشيع فكرة سياسية خالصة، وهناك رأي ثالث يري أن التشيع وجدان عاطفي خالص لأهل البيت، وكل فريق له حججه، فالفريق الأول ينظر إلى الأحاديث الواردة عن الرسول في حق علي ﷺ: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**» ، والفريق الثاني رأي أن عليًا أحق بالخلافة من معاوية، والفريق الثالث ينظر إلى ما تعرض له آل البيت من إحن ومحن من قبل الدولتين الأموية والعباسية، وهذا ما جعل كثيرًا من المسلمين يتشيعون عاطفة وحبًا لآل البيت لا تشيع عقيدة دينية، انقسم الشيعة إلى فرق عديدة منها فرقة **السبئية** التي ألهت سيدنا علي فحرقهم بالنار، ومنها **الكيسانية** التي كانت تعتقد بإمامة محمد بن الحنفية وتعتقد أنه حي في جبل رضوى بالحجاز، أما فرقة **المغيرية** فقد كانت تعتقد في إمامة محمد النفس الزكية ثم ادعاها لنفسه بعد ذلك، ومن أكثر الفرق اعتدالًا فرقة التوابين وهم الذين دعوا الحسين للكوفة ثم ما لبثوا أن انفضوا عنه فلقي مصرعه في كربلاء على النحو البشع في كتب التاريخ، فحزنوا لذلك حزنًا بالغًا، ونشأت في البصرة جماعة سرية أطلقوا على أنفسهم اسم التوابين، وكان على رأسهم سليمان بن صرد الخزاعي، وكان هدفهم هو الثأر للحسين.

وقد عرض المؤلف باستفاضة أهم فرق الشيعة أو جمهور الشيعة الذين يعيشون بيننا هذه الأيام وتربطنا بهم روابط التسامح والسعي إلى تقريب المذاهب، وهم

الشيعة الإمامية، حيث إنهم يمثلون ثلثي سكان إيران، نصف سكان العراق، ومئات الآلاف من سكان لبنان وبضعة ملايين في الهند، وهم في عقيدتهم كسائر الشيعة يؤمنون بإمامة سيدنا على وانتقال الوصاية منه إلى أبنائه، وهي فرق متعددة كالباقرية والجعفرية والواقفة والناووسية، والأفطحية والإسماعيلية، والاثنا عشرية وهي أكثر الفرق انتشارًا في البلاد التي ذكرنا، وسموا بذلك؛ لأنهم يؤمنون باثني عشر إمامًا متتابعين هم على بن أبي طالب ثم ابنيه الحسن فالحسين، على زين العابدين بن الحسين انتهاء بمحمد بن الحسن الملقب بمحمد المهدي القائم.

وهذه الفرقة تتناوب عليها ثلاثة أسماء الجعفرية حينًا أو الإمامية أو الاثنا عشرية، وهي أبعد الفرق الإمامية عن الغلو إلا في حالات بعينها، والإمامية يزيدون ركنًا خامسًا على الأركان الخمسة المعروفة لدى السنة، وهو الاعتقاد بالإمامة أي أن منصب الإمامة إلهي يُنصُّ عليه، فينص عليه النبي فيمن يخلفه ليبلغ عنه كما يبلغ النبي عن الله، ومن ثم فالأئمة الاثنا عشر متسلسلون عندهم، وهم معصومون عن الخطأ كالنبي وإن كان الإمام دون النبي وفوق البشر، وعلى أساس الإمامة يحكمون على سائر المسلمين بأنهم دون الشيعة أي أنهم مؤمنون بالمعنى العام ولا يخرجهم عدم الإيمان بالإمامة عن الإسلام.

١- ومن أهم الفروق بين السنة والشيعة الإمامية أن الإمامية لا يقبلون الأحاديث إلا أن تكون مروية عن أهل البيت، أما ما يرويه أبو هريرة وغيره من المحدثين الرواة فلا اعتبار به، ومن ثم فلا يعترفون بكبريات كتب الحديث عن أهل السنة مثل موطأ مالك ومسند أحمد والصحيحين وكتب السنة الأربعة المعروفة، وكذلك فالإمامية لا يأخذون بالقياس كما يفعل بعض أئمة أهل السنة، وهناك فروق أخري بسيطة في العبادات والمعاملات حيث إن صلاة الجمعة معطلة عندهم إلى حين انتظارًا لظهور الإمام المستور وصلاة العيدين عندهم فريضة، وعندهم

زكاة الخمس فريضة لآل محمد عوضًا عن الصدقة التي حرمها الله عليهم من زكاة الأموال، وكذلك عندهم زواج المتعة أو عقد الانقطاع، وهو زواج مؤقت كان معمولًا به أيام النبي ﷺ فلما جاء عمر أوقفه وحرَّمه والراجح أنه حُرِّم في زمن النبي والإمامية على جوازه معتمدين على قوله – تعالى-: ﴿ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [النساء:٢٤] ، وقيل إن جماعة من عظماء الصحابة والتابعين كان يفتون بإباحة هذا النوع من الزواج، وما زال هذا الزواج ساريًا عند الإمامية حتى اليوم، ويرون أنه ضروري للمسافر الذي يطول سفره، والطلاق عندهم لا يتم إلا في حضور شاهدين عدلين لما فيه من صون للأسرة، وكذلك فالطلاق ثلاثًا مرة واحدة يعتبر طلقة واحدة.

٢- **التقية**، معناها المداراة، وأن تظهر غير ما تبطن حفاظًا على العقيدة والدم والمال والعرض، فإذا خلا الشيعي مع نفسه التزم بعبادته على مذهبه وهذا معترف به عند الشيعة، وإن كانت سببًا في الخروج على كثير من الأئمة لوقوعهم في التناقض حول المسألة الواحدة؛ لأنهم يحملون أجوبتهم على التقية التي جعلوها جزءًا من عقيدتهم إذ نسبوا إلى الإمام الصادق قوله : «التقية ديني ودين آبائي»، وبين الدكتور موسي الموسوي عدم صحة ذلك وأنكر التقية في كتابه «التصحيح».

وعن تصورهم للإمام والإمامة يذكر الإمام الخميني بأنه لم يرد في القرآن نص بشأن الإمامة ولكن يرى أنها عقيدة قد فرضها العقل لكنه غالى مغالاة شديدة في تقديس الأئمة في كتابه الحكومة الإسلامية حيث فَضَّلهم على جميع الملائكة وجميع الأنبياء والمرسلين بغير استثناء، وهو في حقيقة الأمر يعبر عن صفوة علماء الشيعة، وتلك المغالاة قد دفعت د.الموسوي لمؤاخذة فقهاء المذهب ومراجعه؛ لأنهم هم الذين قادوا العوام إلى الغلو في الأئمة، من حيث العصمة والعلم اللدني، والإلهام، والإخبار بالغيب.

٣ـ الرجعة:

ومعناها أن الأئمة الاثنى عشر سيعودون إلى الدنيا في آخر الزمان لكي يحكموا الدنيا تعويضًا لهم عن حرمانهم في حياتهم، وأول إمام يرجع هو محمد بن الحسن العسكري، وهو الذي سيمهد الأمر لآبائه وأجداده من بعده حسب التسلسل الزمني وبعده تقوم القيامة، ولم تقتصر الرجعة للأئمة الاثنى عشر فقط بل ستكون لبعض أعدائهم حتى ينتقموا منهم في الدنيا، وهذا وجه يأخذه عليهم د. الموسوي إذ كيف ينتقم من أعدت له جنة عرضها السموات والأرض؟!، وهنالك جمهرة من المؤرخين يؤكدون بأن الحسن العسكري لم ينجب ومن ثم فآخر الأئمة رجوعًا شخصية وهمية من اختراع الشيعة، وتعد زيارة قبور الأئمة ثوابها الجنة بل إن ثوابها يعدل سبعين حجة غير حجة الإسلام، وزوارها مشمولون بشفاعة محمد ﷺ، ، ويرون غير سائر المسلمين أن الكتاب الذي أنزل على محمد محرف، وألف الطبرسي كتابًا أسماه فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب، ملأه بالأكاذيب حول زيادات زعمها أضيفت إلى القرآن، بل منهم من يعتقد أن عندهم مصحفًا أزيد من مصحف عثمان ثلاث مرات وهو مصحف فاطمة، وهذا أمر قد أخذه الشيعة أنفسهم على المغالين منهم فألف الطبرسي كتابًا سماه رد الشبهات عن «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب»، وصدر عن قلة من الشيعة شتم للصحابة ووصف لهم بصفات نُنَزِّهم عنها كما ينزهم أيضا المعتدلون من الشيعة أنفسهم، ولم يعترض سيدنا علي على شرعية خلافة الخلفاء الراشدين بل بايعهم ولم يكن راغبًا فيها، وإنما كان زاهدًا عنها، ومن ثم فلا مجال لتقديس الخلافة؛ لأنه لو كان هنالك نص سماوي في النص على على ما كان للإمام على أن يغض النظر عنه ويبايع الراشدين السابقين عليه؟ بل إن الإمام على كان يحب الخلفاء حبًا دفعه إلى تسمية أولاده أبا بكر وعمر وعثمان، وخطبته في يوم وفاة أبي بكر تدل على عظم حبه

له بل كان يحترمهم ويتعاون معهم أيضا في حل مشاكل المسلمين، ومن ثم فالإمامة كمنصب إلهي قضية اخترعت في زمن متأخر، كما يقول د. الموسوي ولو كانت منصبًا إلهيًا ما قال سيدنا على بعد طعنة ابن ملجم: أتركككم على ما تركككم عليه رسول الله، وما كان للحسن أن يتنازل عنها لمعاوية بذريعة حقن دماء المسلمين. ويختتم المؤلف مقاله عن الإمامية بعدد من شعرائهم الذين سار ركب التشيع معهم خطوات بعيدة المدى معبرين عن الملمات والنوازل التي تعرض لها آل البيت.

الزيدية وينسبون إلى زيد بن على زين العابدين، وهم أكثر تسامحًا من غيرهم من الشيعة في الإمامة إذ يعترفون بصحة خلافة أبي بكر وعمر، ومن ثم فلا يهاجمونهما، وبذلك يعترفون بإمامة المفضول في وجود الأفضل، ورغم ذلك بذلوا من دمائهم في سبيل الحكم، وكونوا خلافة تجمع بين السلطتين الدينية والزمانية وكان ما يزال امتدادها في بلاد اليمن إلى زمن قريب، وكانوا مقتدين بزيد بن على في خروجه على الأمويين واستشهاده التي تشبه قصة جده الحسين من حيث المكان والتورط وتقاعس أهل الكوفة عن خوض الحرب، ومذهب الزيدية يميل إلى الاعتزال حتى قيل إن الإمام زيدًا كان تلميذا لواصل المعتزلي، وافترقت الزيدية إلى فرق منها: الجارودية والصالحية والبترية، وهو مذهب يوجب على المسلمين الاجتهاد فإن عجز جاز له التقليد لأهل البيت، وهم أقرب فرق الشيعة إلى السنة.

أما القسم الثالث من الكتاب فقد عرض المؤلف (**غلاة الشيعة الإسماعيلية والدروز العلويين النصرية**): والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق والفرق بينهم وبين الأئمة الاثنى عشرية أنهم لا يعترفون بإمامة إسماعيل؛ لأنه شرب الخمر قيل إن أباه جعفر الصادق نفاه من الإمامة، وقيل إنه توفي في حياة أبيه، وقيل إن إعلان وفاته كان تقية لاضطهاد الأئمة، وكان لهم نشاط سياسي في طور الظهور بعد أن ظلت الإسماعيلية مستترة حوالي قرن من الزمان، وقيل إنها هزمت

جيوش الخلافة العباسية في مواقع كثيرة باسم القرامطة، واستطاع أبو عبيد الله المهدي أن يؤسس دولة إسماعيلية في شمال أفريقية ٢٩٧هـ وزحفت إلى مصر شرقًا على يد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله الفاطمي، وشملت خلافتهم شمال إفريقية كله ومصر والشام وصقلية وجنوب إيطاليا، وقد كان دور الستر سببًا في التشكيك في نسبة بعض الأئمة إلى الإسماعيلية، وأدرك المصريون ذلك فكان سببًا للتندر عليهم، واستمرت دولتهم في مصر إلى أن دالت على يد صلاح الدين، ولم تلتزم الإسماعيلية في تطورها بالنص على الإمام بل كان يتجاوز النص أحيانًا، وهذا ما فعله المستنصر بالله حينما نص على إمامة ابنه نزار دون أخيه المستعلي فنحاه الوزير بدر الدين الجمالي وسجنه وجعل المستعلي - ابن أخته- إمامًا رغم صغره، ومن هنا انقسمت الإسماعيلية إلى: النزارية والمستعلية، وانتصر أحد دعاة الإسماعيلية لنزار فأسس لدعوته في فارس، وعُرف أتباعه باسم الحشاشين وقتل ابن الآمر بن المستعلي ببعض الفدائيين من أتباعه، وخلف راشد الدين سنان بن الصباح في سفكه للدماء فقتل المركيز الصليبي كونراد المونفراتي، وحفظ صلاح الدين للإسماعيلية هذه اليد، ولكنه أضاف آراءً جديدة إلى عقيدة الإسماعيلية مثل التناسخ، وظلت طائفة الإسماعيلية النزارية في سلمية والخوابي والقدموس ومصياف، أما البهرة - وهي إسماعيلية الهند واليمن - فإنهم ينتسبون إلى الإسماعيلية المستعلية، والبهرة لفظ هندي قديم يعني التاجر، وانقسم البهرة إلى الداودية وإلى السليمانية والأولى في النهد وباكستان الآن والثانية في اليمن، أما الأغاخانية فإنهم ينتمون إلى الإسماعيلية النزارية ويسكنون نيروبي ودار السلام وزنجبار ومركزهم القيادي في كراتشي، وهم يقدسون الأغاخان ويقولون بعصمته.

الدروز: وهي فرقة إسماعيلية باطنية نشأت إبان العصر الفاطمي وأخفوا عقيدتهم عن أن تذاع بين الناس، وهم يسكنون مناطق متفرقة من لبنان(مثل

مناطق: الشوف والمتن ولاجنوب ومدن عبية والشويفات) وسورية(مثل جبل العرب وجبل السماق وقرى قنسرين وبعض قرى أنطاكية، ويكثرون أيضا في بعض قرى فلسطين المحتلة مثل: عكا والكرمل وطبرية، ويطلق عليهم اسم الموحدين وإن كانوا لا ينكرون تلقيبهم بالدروز، وقيل إنهم ينتمون تاريخيًا إلى قبائل لخم وتنوخ، وهناك من يرى أنهم من عرب سوريا والعراق، وهذا يعني أن لهم تاريخًا ممتدًا متماسكًا، وإن كان أكثره كان في دور الستر الأمر الذي دفع المزيفين إلى نسبة الزيف إليهم، وإن كان شيوخهم العقال معروفون بالزهد والتقشف الشديد، ومع ذلك فقد كانوا يخوضون المعارك في صفوف صلاح الدين ضد الصليبيين، وكان يعتقدون في ألوهية الحاكم بأمر الله، الأمر الذي حدا حميد الدين الكرماني إلى تأليف رسالته الوعظية، ووضع حمزة بن على مؤسس العقيدة الدرزية ميثاقًا سماه «ميثاق ولي الزمان» ذهب فيه إلى تأليه الحاكم بأمر الله تأليهًا صريحًا، وعلى ذلك جرى نهج مصحف المنفرد بذاته في تأليه الحاكم في ذاته وصفاته، وعرض الدكتور الشكعة لنموذج من حوار المحدثين الذي دار بين المثقفين الدروز حول تلك المسألة، ورغم أنه يتساءل عما إذا كانت تلك الرسائل التي تؤله الحاكم لحمزة أو أعدائه فإنه يطمئن إلى صحة ذلك؛ لأن حمزة ضمنها كتاب النقط والدوائر في رسالته الموسومة بكشف الحقائق، بل إنه لا يقتصر على تأليه الحاكم فحسب بل عرض لظهور بعض الأنبياء مثل آدم وشيث ونوح وإبراهيم...

ويمكننا القول بأن العقيدة الدرزية عقيدة سرية تتلفع بالفلسفة بل إنها خليط من نظريات فلسفية قديمة أخذت أحيانا عن الهند أو عن الفراعنة القدامى، وهي تنبع في الأصل من حكمة اليونان ممثلة في أفلاطون وأفلوطين الأمر الذي ترقى به أسماء الفلاسفة تلك إلى مرتبة الأنبياء، ومن هنا يمكن الربط بين تلك السمات وبين إخوان الصفا في السمة اليونانية الغالبة، ويتربع على قمة تلك الفلسفات العقل

الأرفع أو الكلي الذي يمثل نقطة الابتكار أو الإبداع.

وعرض د. الشكعة لعقيدة الدروز من خلال كتاب النقط والداوئر لحمزة بن على وإن شكك في صحة نسبته إليه ورجح كونه لمجموعة من المؤلفين إذ يختلف أسلوب الواحد عن الآخر، وتناول أهم فرقهم الثلاث التي وردت في الكتاب، وهي: أهل التنزيل وأهل التأويل وعالم الهدي، وتناول أركانهم البديلة عن أركان الإسلام المعروفة، بني الإسلام على خمس فعقيدتهم بنيت أيضا على خمس: توحيد الحاكم بأمر الله، وصدق اللسان، وحفظ الإخوان، وترك العدم والبراءة من الأبالسة، ويقدس الدروز العددين خمسة وسبعة لما لهما من دلالة خاصة عندهم، فالعدد خمسة يشير إلى الحدود الخمسة، وهم الممدون لكل ناطق(نبي) وأساس(ألصق الناس به)، ويؤمنون بالتناسخ والتقمص للأرواح، بمعنى أنه تنتقل روح الرجل بعد الموت إلى جسد طفل أو امرأة، ويوم الدين عندهم ليس هو يوم القيامة كما هو عند السنة؛ إذ لا تموت الأرواح حتى تبعث بل تتصل الأرواح الصالحة بالعقل الكلي، ومن الأمور التي تفرق وحدة الصف أن الواحد منهم إذا سُئل عن دينه قال درزي لا مسلم، ورغم ذلك فإنه لا يزال يوجد بين الدروز الآن من يحافظ على الصلاة بالكيفية التي يمارسها جميع المسلمين، ويترددون على المساجد والجوامع، ويؤدون الزكاة في رضى والحج وسائر العبادات.

العلويون: وهم فرقة من الشيعة الإمامية، وأبو شعيب محمد بن نصير البصري كان آخر أبواب الإمام الحادي عشر حسن العسكري، وشغل زعامة فريق من العلويين، ومن ثم عرف العلويون في سورية وتركيا باسم النصيرية، وانتقلت رئاسة العلويين بعد نصير النميري إلى عبد الله محمد الجنان الجنبلاني، فأسس الطريقة الجنبلانية بالعراق وأصبحت تساوي العلوية وغلبت الصوفية على المذهب العلوي، ونشأ الخصيبي المصري في مدرسة الجنبلاني وتناوب بعده الرؤساء الذين لم يبلغوا

شأوه، والغلاة من العلويين كان يسميهم الشهرستاني النصيرية، ونسب إليهم تأليه أئمة آل البيت وجعلوا للإمام على قداسة إلهية، ويرون أن النبي مختص بالظاهر وعلى بالباطن والنبي كان مختصًا بحرب المشركين وعلى مختص بحرب المنافقين، ووقع بعضهم تحت التعلات الجاهلة من التثليث المسيحي بل إنهم يؤلفون الوثائق عن على ومحمد وسليمان ويتخذون منه شعارًا لهم (ع، س، م)

ومن ثم فعقيدتهم لها هيكلان هيكل شبه نصراني يتمثل في التثليث وآخر إسلامي، وينقل معلومات من كتاب الباكورة السليمانية في كشف الديانة العلوية لمؤلفة سليمان الأدني تكشف عن شطط معتنقيها وسذاجة تفكيرهم، وصاحب الكتاب نفسه تحول عن العلوية إلي اليهودية إلى أن صار أخيرًا راهبًا كاثوليكيًا، وهذا يدل على تخبطه أولًا وإنكاره على العلويين ثانيًا

وفي مقابل الغلاة كانت العلوية الصحيحة حيث كابد المعتدلون متاعب كثيرة وجدانية ونفسية من الغلاة الذين نالوا من خلال المذهب، الذي هو في أصله إمامي جعفري شيعي، ولم يقع على كاهل التركة الثقيلة على المستنيرين من المشايخ، وحدهم أمثال صاحبي كتاب ما بعد القمر، وكتاب النبأ اليقين عن العلويين...بل انتقل الأمر إلى الشباب الجامعي، وذلك من خلال رسالة تصحيح أرسل بها أحد الشباب إليه يلفت نظره إلى عقيدة العلويين الصحيحة.

القاديانية والأحمدية:

القاديانية تنسب إلى ميرزا غلام أحمد القادياني، وقاديان من إحدى مدن إقليم البنجاب وأسس بها غلام عقيدته المعروفة، وسجل مذهبه رسميًا ١٩٠٠م، وأنشأ مجلة تعبر عن مذهبه أسماها مجلة الأديان، وألف مجموعة من الكتب تشرح أفكاره وأشهرها براهين الأحمدية، وأنوار الإسلام، ونور الحق، وحقيقة الوحي...وترتبط القاديانية بالشيعة، حيث ادعى غلام أحمد أنه المهدي المنتظر، ووجد لدعوته أتباعًا

في البنجاب وأفغانستان، وإيران، واختلفت الأقاويل حول شخص غلام حيث عده البعض عميلا للاستعمار الإنجليزي، والبعض رأى أنه مصلح شعبي، والذي رأوه عميلًا احتجوا بكتابه تبيان الكلام، وما فيه من جعل التوراة والإنجيل غير محرفين، وألا وجود إلا للطبيعة وحدها، وناهيك عن دعوته إلى نبذ الأديان كسبب للتقدم كما كان الحال في أوربا، وأن النبوة مكتسبة، إنسانية الأديان ووحدتها وغيرها من الأفكار التي دعا إليها في سائر كتبه، وفي مقابل ذلك نجد أن أحمد أمين يعده ضمن زعماء الإصلاح في العصر الحديث في كتابه المسمى بهذا الاسم، ويبرر له مهادنته للإنجليز بأنه كان هادئًا لا يؤمن بنتيجة الثورة، وإن كان يؤمن بقوة الإنجليز ويعد مدرسة عليكره خطوة مهمة في طريقه الإصلاحي، وكذلك مجلة تهذيب الأخلاق ليعالج بها أمراض المجتمع ومن عقيدته أن أتباعه يعتقدون في نبوته مثل سائر الأنبياء، وأنه مجدد الدين، بل هو الإمام المهدي الذي بدأ الإصلاح بتجديد الدين، ومن ثم كانت حملة العلماء شديدة عليه.

وبعد وفاته ١٩٠٨م انقسم أتباعه إلى: فريق يرى أنه نبي مرسل وعلى رأسه ولده نور الدين وميرزا شير أحمد وهما الخليفتان للقادياني، وأما الفريق الآخر من غير المؤمنين به كافرون، ولما مات الأول خلفه الثاني وألف كتابًا فضل فيه نبوة القادياني، والقاديانية يرونه نبيًا والأحمدية يرونه وليًا، ورأس الأحمدية محمد على الذي أنكر المعجزات القرآنية إنكارًا كاملًا، وينكر عيسى عليه السلام ولد بغير أب مخالفًا في ذلك الحقيقة الدينية في الإسلام والمسيحية، وهذا يعني أنه يصم العذراء البتول بما لم يصمها به إلا اليهود، بل ينكر أن يعود المسيح إلى الدنيا، ناهيك عن تعطليه لفريضة الجهاد محرمًا إياها ضد الإنجليز بل أوجب السلام تحت حكمهم، فضلًا عن أنه جعل طاعة الحكومة البريطانية جزءًا مكملًا لطاعة الله.

وخص القسم الرابع من الكتاب بالحديث عن **المعتزلة** ونشأتهم في مسجد

البصرة حينما اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري بعد حكمه على مرتكب الكبيرة بأنه في منزلة بين المنزلتين، ويستنتج من ذلك أن نشأة المعتزلة كانت نشأة فكرية لا سياسية كسائر الفرق من خوارج وشيعة وغيرهما، ، ولكنها تحولت إلى فرقة سياسية في عهد المأمون الذي حمل الناس على القول بخلق القرآن، ولحق الإمام أحمد منهم أذى شديد وظل الحال إلى عهد المتوكل فانتصر لأهل السنة من المعتزلة وأشهرها أعلام المعتزلة هم الموصلية، والعلافية، النظامية، والبشرية، وعرض بإيجاز لأصولهم الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، موضحا تأثر المعتزلة بالفلسفة اليونانية المترجمة ومؤكدًا في الوقت نفسه على دورهم في الدفاع عن الإسلام ضد الزنادقة وغيرهم.

وفي مقابل تلك الفرق الغالية التي عرض لها المؤلف نجد **أهل السنة والجماعة** معتصمين بكتاب الله ومجمعين على الأخذ بسنة رسول الله ﷺ سواء في أحاديث منقولة أو في شكل أفعال مأثورة، وكانت هناك طائفة تقول بالرأي في الأمور المستحدثة التي لم يشر إليها القرآن أو اعتنت بها السنة، وتطورت الأمور فقامت مدرسة تجمع بين أهل الرأي وأهل الحديث فلا تعمل الرأي إلا بعد انعدام النص، ومن أعلام هذه المؤسسة الإمام مالك بن أنس والإمام الشافعي، ووضح مفهوم الإمام عند أهل السنة مقارنًا بينه وبين الإمام عند الشيعة، فالإمام عند أهل السنة أحد علماء المسلمين المعروفين بكمال الاستقامة وكمال الإيمان، ولا يولد إمامًا، وليس معصومًا، ولا يشترط فيه لون أو جنس أو انتماء كما هو الحال عند أئمة الشيعة، وتحدث عن أئمة أهل السنة الأربعة فعرض لأبي حنيفة (ت ١٥٠) إمام أهل الرأي معرفًا به ومتناولًا شيئًا من مناقبه ومواقفه من السياسية والقضاء والإمامة، وكذلك فعل مع بقية أئمة أهل السنة فعرض الإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، ثم تحدث عن ظهور المدرسة **الأشعرية** التي الغزالي وغيره من

أعلام المذهب وأطلق عليهم مذهب أهل السنة والجماعة على الرغم من سبق أهل الحديث، وربما ذلك لدورهم في الدفاع عن الإسلام بالأدلة العقلية والنقلية، وعرض لشيء من عقيدتهم نقلًا عن البغدادي صاحب الفرق بين الفرق، ثم تحدث عن **السلفيين** الذين تابعوا السلف الصالح في الأخذ عنهم من الكتاب والسنة قبل انشعاب المذاهب الإسلامية وبرزت بوضوح تلك السلفية في القرن السابع على يد شيخ الإسلام ابن تيمية، لم يذهبوا إلى تكفير خصومهم.

المتصوفة:

عرض المؤلف للصوفية بعد أهل السنة معتبرًا أن الجانب الروحي جانب مهم، وأنه كان موجودًا عند أهل السنة في مقابل الماديات طالما أن هذا التصوف بعيد عن الشطحات الصوفية في الذات الإلهية، ولا يمكننا أن نغفل هذا الجانب بحال؛ لأننا لا ننكر أن معظم علمائنا وأئمتنا كانوا صوفية مثل: الغزالي والبسطامي والقشيري والمحاسبي وغيرهم، وإن كان هؤلاء من أعلام الشرق فإن هذه الروح كانت موجودة أيضا عند علماء المغرب العربي حيث ألف ابن بشكوال كتاب «زهاد الأندلس وأئمتها» ولكن رغم ذلك فقد تحدث هذا الكتاب عن ابن عربي وابن العريف والشاذلي وأحمد البدوي وأبو العباس المرسي وغيرهم كان لهم أثر في مسيرة الحياة الروحية في المشرق إن لم يكن لهم طرق وأتباع ومريدون، ولم يهاجم الفقهاء أصحاب الشريعة غير أصحاب الشطحات من المتصوفة بل كان المعتدلون من الصوفية أنفسهم ينتقدونهم؛ لأنهم علماء بالشريعة أولًا.

ولم يفت الدكتور الشكعة أن يعرج على أصل التسمية، فتعرض للأقوال التي ذكرت في تسمية التصوف، وهل هو مأخوذ من سوفيا اليونانية، أم من لباس الصوف، أم من الصفا، أم من أهل الصفة، أم من الشخص (عبدك الصوفي)؟ ويرتضي اشتقاق التصوف من الصوف؛ لأنه يعني الزهد في حطام الدنيا.

ويرى أن الصوفي هو الذي يبتعد عن الماديات والصوفية هم من صفت قلوبهم عن كدورات البشرية وآفات النفس، ومن ثم يعتبرون أنفسهم أفضل من الفقهاء، فالشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده، وكان الصوفية يعملون بأيديهم فهناك الخراز، والحلاج وغيرهم، ممن تركوا لنا تراثًا هائلًا مثل الرعاية لحقوق الله للمحاسبي، الظل الممدود والماء المسكوب والحياة الباقية للحلاج، والرسالة للقشيري، ولطائف الإشارات، الإحياء للغزالي، والفتوحات لابن عربي...وغيرها من الكتب، ومن أهم موضوعات التصوف: المجاهدة وما يحصل عنها من أذواق ومواجيد، والكشف عن عالم الغيب، والكرامات، الألفاظ، أو الشطحات.

الآثار الثقافية للكتاب أو للمذهب:

أراد د. الشكعة من كتابه أن يقف القارئ على عدد من الحقائق المهمة للمسلم العصري، وهي:

١- أن للفرقة أثر خطير على وحدة الإسلام والمسلمين، وقد رأينا كيف حدث اقتتال بين الشراة من الخوارج وغيرهم وبين القرامطة وغيرهم بسبب تعصبهم الأعمى، وتصاعد ذلك الصراع بين المذاهب لاسيما بين السنة والشيعة، وكثيرًا ما كان يقع الخلاف بين السنة أنفسهم، وتعد الشيعة أيضًا من أكثر الفرق خسارة للأرواح فبقدر عطف الناس عليهم كان تنكيل الخلفاء بهم، ومن ثم كان التفاف بعض الغلاة الكيسانية والسبئية والإسماعيلية يلقى قبولا عندهم وفي المقابل نفور جمهور المسلمين منهم، وهذا الخلاف التاريخي بين السنة والشيعة سالت بسببه الدماء في الأعوام ٤٠٨، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٩ هـ، وكان التعصب هو المسيطر على الطرفين ولم يكن الشيعة هم المعتدى عليهم في كل حين بل كانوا معتدين أيضًا أثناء دولتهم البويهية والفاطمية، بل كان الفاطميون أكثر ضراوة إذ كان يقتل السني إذا وجدوا عنده موطأ مالك.

ولم يكن الخلاف الدامي بين المسلمين (السنة والشيعة فحسب) بل كان بين السنة والمعتزلة أيضا فتنة القول بخلق القرآن، وهي خير مثال على قتل المعتزلة للسنة في دولة المأمون بل إن الخلاف كان يقع داخل صف السنة أنفسهم بين أتباع المذاهب كالخلاف بين أتباع أحمد والشافعي.

٢- إن المذهبية أضرت بالإسلام، وتعد هي المدخل الرئيسي الذي يدخل منه أعداء الإسلام بدءًا من اليهود والموالي وأصحاب الديانات الوضعية إلى الصهيونية والاستعمار حديثًا، إذ يفرقون بين السني والشيعي في العراق ولبنان، وبين السني والإباضي، وتمكن تلك الفرقة للاستعمار في بلاد الخيرات والبركات، ومن ثم تمكن الاستعمار من زرع بعض ضعاف النفوس للعمل على مصالحه الاستعمارية، فاستطاع الاستعمار الفرنسي في الماضي أن يستخدم بعض أبناء المسلمين من العلويين الأمر الذي خلق فتنة بعد الاستقلال، وفي العراق أوقعوا الفتنة بين السنة والشيعة، وما زالوا جاثمين مغتصبين تحت مظلة ضعاف النفوس من الخونة والمرتشين، وفي الجزائر حاول الاستعمار الاستعانة بالإباضية، ولكنه فشل رغم استخدامه لكل وسائل الإغراء من مال وآمال وتزوير، وما كان يهود الدونمة إلا خنجرًا مسمومًا طعنت به الخلافة العثمانية في تركيا.

٣- إن التقريب ضرورة بين المذاهب: ولا يحسن التقريب بين المذاهب إلا بين المذاهب المعاصرة، وإن كانت المذاهب المعاصرة هي امتداد لمذاهب مندثرة أو هي بعبارة أخرى فرع جديد لمذهب قديم فلم يبق من العجاردة أو البيهسية والثعالبة وغيرها من فرق الخوارج سوى الإباضية الذين يعيشون الآن في عمان وطرابلس وتونس والجزائر وشرق أفريقية ولم يبق من فرق الشيعة على كثرتها التي عرض لها سوي الإمامية والزيدية والإسماعيلية والدروز والعلوية ولم نعد نسمع في عصرنا عن المعتزلة وفرقها وإنما ذاب مذهبهم في تعاليم الشيعة الزيدية والاثنى عشرية

بحيث يمكن أن نخلص إلى أن المذاهب المعاصرة هي أهل السنة والإباضية، والشيعة الزيدية «الاثنى عشرية»، وإذا طرحنا الخلافات القديمة سنجد أن هناك صلة وروابط أكيدة تجمع بين السنة والإمامية في شخصي مالك وجعفر حيث تفقه الإمام مالك السني على الإمام جعفر الشيعي، وبين السنة والزيدية في شخصي أبي حنيفة وزيد حيث كان الأول تلميذًا للإمام زيد بن على الذي ينسب إليه المذهب الزيدي، وبين السنة والمعتزلة أشخاص مثل الحسن البصري وواصل بن عطاء، وبين الزيدية والإمامية في شخصي الأخوين زيد ومحمد الباقر، وبين السنة والخوارج في شخصي البخاري وعمران بن حطان الذي أملى الحديث على البخاري، فتلك روابط متينة لها قداستها، ومن ثم فلا تنافر في إمكان التقريب بين الإباضية والشيعة، فالإباضية يرفضون النسبة إلى الخوارج ولا يلعنون عليًا وإن أبطلوا التحكيم، ويرون إسقاط شرط القرشية عمن تتوافر فيه شروطها من عامة المسلمين، فالخلاف بين الإمامية والإباضية لا يكاد يبعد عن الخلاف بين الإمامية والسنة، وهو الخلاف على الإمامة وهو خلاف يمكن تفاديه، إذ ليس هناك نظام الحكام المسلمين عن طريق الإمامة إلا في اليمن انتهى سنة ١٩٦٢م، أما مسألة الإمام المستور فلا يعقل أن تختلف على أمورلم تحدث فضلًا عن أن الإيمان بالمهدي عند الشيعة لا يوجب التكفير، أما مسألة المتعة فهي مسألة فقهية بين المذاهب الإسلامية يمكن حسمها بالحوار الفقهي والبحث، ويرى المؤلف أن تقترب هذه المذاهب الواحد تلو الآخر في سهولة ويسر ولا داعي لهذه الفرقة الطويلة الناتجة عن جهل وجمود وتعصب، ومن ثم كانت فكرته هي إسلام بلا مذاهب لأن لب العقيدة واحد، ومصدرها واحد وإلهها واحد ورسولها واحد.

*****